

انقرائية تمظهرات الموت في الرواية الجزائرية
نماذج مختارة

Readability of the manifestations of death in the Algerian novel
Selected models

1 أمال بوكرت*

جامعة البليدة 2، a.boukert@univ-blida2.dz

تاريخ الارسال 2023/06/23 تاريخ القبول 2024/03/26 تاريخ النشر 2024/06/01

ملخص:

حفلت الرواية عموما بوصفها ثمرة المبدعين وخلاصة ما يؤمنون به بوعي منهم أو بدونه بطرح خطابات الموت بأشكاله المختلفة، سواء تعلق الأمر بهويته المحسوسة وما يبثه في ذات وتراكيب الشخصية الروائية وما يحيطها، أو بحضور الموت التجريدي في حيثيات النسيج الروائي وتبعاته المتراكمة في قلب الأحداث الروائية، وقد سجلت الروايات الجزائرية خاصة حضورا لافتا لهذه التيمة التي فرضتها الظروف التاريخية والسياسية تارة والظروف الفكرية والعقائدية تارة أخرى، إذ تعدت الطرح البسيط الساذج لهاجس الموت وما يورثه في حياة الشخص الروائية، وانبناء النصوص إلى طرح تمارجت فيه حيرة الفلسفة ورغبتها في كشف الأسرار مع فسيفاء دواخل الإنسان وعلاقته بظروفه الحياتية، إذ تروم المداخلة رصد -بعض- تعابير المؤلفين الجزائريين وتفسيرهم الخاص لخطاب الموت من خلال ضمّه في أعمالهم الروائية، ودراسة أشكال هذا التسريد ودواعيه الجمالية والثقافية، وتقصي أسباب تنامي حضور هذا الخطاب في المتون الروائية وعلاقته بالتوجه الواقعي في الإبداع الأدبي المعاصر.

الكلمات المفتاحية: خطاب الموت، الرواية الجزائرية، المقاصد الدلالية.

Abstract:

The novel's presentation of discourses on death in its many manifestations, whether it relates to its tangible identity and what it broadcasts in the self and structures of the fictional character and what surrounds it, or the presence of abstract death in the context of the fictional fabric and its accumulated consequences in the heart of the novel events, was generally celebrated as the fruit of the creators and the summary of what they believed in, consciously or not. This issue was imposed by historical and political circumstances at one point and by intellectual and ideological constraints at another point, and Algerian women in particular had a notable presence for it since it went beyond the simple and unsophisticated depiction of the fixation with death, and what it leaves behind in the lives of fictional characters and the creation of texts to a proposition in which the confusion of philosophy and its desire to reveal secrets mixed with the mosaic of the human interior, and The intervention's objectives are to observe some of the expressions of Algerian writers and their personal interpretation of the

death discourse, and looking at the factors that are causing this discourse to appear more frequently in narrative texts as well as how it relates to the realistic approach used in modern literary creativity

Keywords: Death speech, Algerian novel, semantic purposes

1. توطئة:

لطالما شغل الموت بوصفه حقيقة حتمية فكر الإنسان وأثار حيرته وأشجن مشاعره وعواطفه، وعلى هذا الأساس تعاقبت تفسيرات البشر لماهية الموت الأنطولوجية والأنتروبولوجية من منابر مختلفة، لهذا لن ينسلخ الأديب من طرق هذه التيمة الملاصقة لكيثونة الإنسان والضاربة في عمق عقله الذي يعيها ويخافها بل يخاف جهله بمعنى وفعل الموت وهو حي قبل أن تنفذ لحظات حياته مثله مثل أي إنسان آخر.

سجل خطاب الموت حضوره مبكرا في عرف التاريخ العربي من خلال الأشعار التي خلفها الجاهليون ممثلة فيما كتبوه وابتدعوه وأفردوا لها غرضا شعريا خاصا عُرف بالثناء يعددون فيه محاسن موتاهم وشوقهم الدفين لهم، لتتعدد خطابات الموت لاحقا وتأخذ أشكالا متنوعة حسب الوقت المؤلفة فيه، خاصة فيما تعلق بالمبدع المعاصر الذي سئم من الحياة وما فيها من اختلالات فادحة، وراح يبحث عن ملاذ آخر في أدبه يغنيه عنها وعن واقعه فيها في أحيان معينة.

2. إحاطة مفاهيمية لحقيقة 'الموت':

يتصل موضوع الموت بعدة حقول معرفية دينية نفسية اجتماعية ونفسية، لكل منها تصور خاص لتيمة الموت وعلاقته بالذات الإنسانية، وإن كان التصور الديني قد فصل في ماهية الموت وعلاقته بالحياة وما يأتي بعده فلم يترك مجالاً للشك والحيرة، بل أسهم في شحن الإنسان فكريا، وروحيا ونفسيا، وعاطفيا، ليستطيع التعاطي مع حقيقة الموت بالشكل المطلوب.

1.2 . التصور الديني لمفهوم الموت:

لقد فصل الدين الإسلامي من منبر القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في تفسير فعل الموت وحقيقته وعلاقته بالإنسان والظروف المحيطة به، مثله مثل باقي الأديان السماوية التي تؤمن بالموت وأن هناك حياة أخرى تتبعه، كما نبه الله تعالى عباده بضرورة اغتنام الحياة في العمل الصالح قبل انقضاء وقتها ومجيء الموت الذي يعد حتمية لا مفر منها لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " لو أن ابن آدم هرب من رزقه، كما يهرب من الموت، لأدركه رزقه، كما يدركه الموت"، وبهذا تعد نظرة الإسلام للموت نظرة متكاملة "الموت في الإسلام فكرة منهجية ورؤية متكاملة وسبيل عمل ومسابقة وتفان وإخلاص وإحياء للقلوب وهدم للعقبات، فنجعل من ذكر الموت منهج حياة ووسيلة إنجاز وانبعث الأمة"⁽¹⁾.

فواقعة الموت لا تستثني أحدا من البشر " فقانون الموت من أهم السمات المميزة للكائنات الحية التي تعيش على ظهر هذا الكوكب الصغير"⁽²⁾، فرؤية الإسلام للموت رؤية واضحة إذ أن الموت حق، وعلى العبد أن يستعد

للمرور بعدد من المراحل حتى يتعرف على مكان خلوده، غير أن هذا العلم لا يلغي خوف الإنسان واضطرابه الشديد من الموت حتى ولو كان يعيش أقصى سنين الشيخوخة " فالموت شيء مرعب يجعل دراسته مبعوضة. إن الموت مخيف فعلا، دليل على أننا نعمل على اجتنابه بكل الطرق، فكما أننا ننظر يمينا وشمالا قبل المرور من جادة طريق إلى الجادة الأخرى تجنبنا لحادث سير مفترض، أي تجنبنا للموت في نهاية المطاف، كذلك تجنب الموت في الكلام والكتابة. فالنظر يمينا وشمالا قبل عبور الطريق سلوك هدفه تجنب الموت، وعدم الكلام عن الموت هو أيضا طريق للهروب منه"⁽³⁾، وفي السياق نفسه طرح 'محمد عبد الرحيم الزيني' سؤالا عن سبب خوف الإنسان من الموت وقد حصر الإجابة في ستة أسباب ممثلة في غريزة الإنسان في حب البقاء وكره الفناء لأن الإنسان متصل بهذا العالم ينتمي إليه ويثبت وجوده داخله، إضافة إلى تعلق الناس بمباهج الحياة ومختلف الملذات التي تسعدهم، وكذا يخاف الإنسان من فراق الأهل والأحباب والبقاء وحيدا، إلى جانب هذا يخاف الإنسان من آلام الموت فساعة الموت ساعة شديدة الوطأة فيها من الشدائد والصعاب ما يثير الخوف والهلع في النفوس.

والسبب الآخر يتمثل في خطايا الإنسان في الحياة "الإنسان وهو على طريق الحياة يعتلج في داخله صراع دائم بين الخير والشر، وكثير من الناس ينحرفون عن الجادة، ويهبطون مع جاذبية المادة إلى قرار سحيق، فيرتكبون الكثير من المعاصي، ويحملون أوزارا، بل تصبح علامات سودا تقض مضاجعهم... وأمثال هؤلاء الذين استيقظت ضمائرهم وانتبهت نفوسهم يجزعون من الموت جزعا شديدا كلما تمثل لهم"⁽⁴⁾، وآخر سبب استعرضه يتمثل في تصور الإنسان لحاله في القبر المظلم والبارد وحيدا تنتهكه الديدان، وقد بيّن الله عز وجل في كتابه العزيز حتمية الموت وتفجع الناس منه والرغبة الدائمة التي تحذوهم في الفرار منه لقول تعالى: { أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ } (النساء. 78).

ويتجه الحديث الديني عن الموت في اتجاه الوعظ والدعوة إلى التدبر واغتنام نعمة الحياة وما توفره من فرص وأسباب في اكتساب الأجر والثواب وكذا لتنبية الناس لقصر الوقت الذي يمتلكونه وضرورة استثماره في عيش حياة سوية تترسخ فيها المبادئ الإسلامية السمحة، دلالة على لما يحظى به الإسلام من علم متكامل وشامل بشأن فعل الموت وما بعده، إذ يعرف الفرد المؤمن سبب تذوقه الموت وغاية اندثاره من هذا العالم الدنيوي لما تزخر به الكتب الدينية من معارف وأقوال حول سكرات الموت وعذاب القبر والبرزخ و أهوال يوم القيامة ويوم الحشر والحساب، والموت في الحقيقة ما هو إلى طريق يصل بين الدنيا والآخرة.

كما فصل الإسلام في طريقة استقبال الفرد الموت، والاختلاف بين المسلم والكافر أو المنافق، وتباين قناعات هؤلاء وآرائهم بشأن الموت وما ينتظرهم بعده، فالمؤمن يستبشر بلقاء الله تعالى وبمنزلته في الجنة، بينما يكتشف الكافر والمنافق علما آخر لا ينذر بالخير أو الصلاح { وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ } (الأنعام. 93)

تختلف نظرة المتصوفة إلى الموت، إذ ينتظرونه بفارغ الصبر من أجل لقاء الله تعالى، والحياة بالنسبة لهم ما هي إلا سجن كبير إذ يرهقهم الانتظار لعيش الحياة الحققة في العالم الآخر، والموت عندهم موتان "موت شهوات النفس والأبدان بهدف التحرر من شؤون التسفل والانحطاط، وموت تتخلص فيه الروح عن البدن وتحيا الحياة الإلهية الدائمة السعيدة"⁽⁵⁾، بحيث يتخلص المتصوف من قيود الحياة ومن آثامها المترتبة بالإنسان مما أدى بهم إلى الانعزال عن العالم الخارجي وصنع عالم خاص بهم يؤسسون فيه لروابط قوية تجمعهم مع الله تعالى.

2.2 التصور الفلسفي لمفهوم "الموت":

تفاعل المشتغلون بمحل الفلسفة مع موضوع الموت منذ قرون خلت، كما أدلى علماء الكلام بآرائهم العقلية حوله من بينهم الإمام الغزالي إذ يقول: "العقل لا يتغير بالموت، إنما يتغير بالبدن والأعضاء، فيكون الميت عاقلا مدركا بالألام واللذات كما كان"⁽⁶⁾، مما يحيل على أن تحقق الموت يكون بانفصال الروح على الجسد وهذا متفق عليه في كل النظريات الفلسفية التي تقر بفكرة فناء الجسد وخلود الروح "منذ ربيع الفلسفة اليونانية قرر سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وخلود الروح، حتى ليقرر سقراط بكل وضوح وهو يشرح لسيماس طبيعة الموت، وهل يكون الموت إلا انفصال الروح عن الجسد؟ والإنسان إنما يبلغ هذا الانفصال إذا قامت الروح بذاتها مفصولة عن الجسد، وقام الجسد مفصولا عن الروح"⁽⁷⁾، ولأن الفلاسفة المسلمين يؤسسون جملة مبادئهم ومعتقداتهم من القرآن والسنة فقد ناقشوا مسألة خلود الروح بنوع من الاستفاضة، والأديان السماوية بشكل عام أقرت بوجود عالم آخر تستمر فيه حياة الإنسان بشكل أبدي.

كما اشتغل فلاسفة العصر الحديث بتفسير ماهية الموت من منابر فكرية مختلفة، من بين هؤلاء 'ديكارت' الذي حاول دراسة الجسم البشري من أجل إيجاد طريقة لمد سنوات الإنسان بحيث يمكن أن يعيش قرونا عديدة "ديكارت كان مهتما إلى حد كبير بالطب طوال الشطر الأعظم من حياته... لكن الطب كان يعني بالنسبة له ما يفوق كثيرا الشفاء أو التخفيف المعاناة، فهو يعهد له بمهمة أكثر اتساعا في نطاقها، إذ كان مقتنعا بأنه من خلال المعرفة الأفضل بالجسم البشري وعن طريق الغذاء المناسب سيغدو من الممكن مد نطاق عمر البشر إلى قرون عديدة"⁽⁸⁾، غير أن توجه الفلاسفة بشأن الموت وخلود الروح عرف منحى آخر في القرن الثامن عشر، إذ أقر عدد من الفلاسفة على بطلان فكرة الخلود وعدم الاعتراف بما ورد في الأديان السماوية من وجود لعالم آخر بعد الموت "مع الفلاسفة الماديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر أصبح إنكار خلود النفس هو الموقف الفلسفي الأكثر أصالة... كان التأكيد عند الفلاسفة الفرنسيين على الحياة وما الموت إلا محض حادث طبيعي مؤلم لا يمكن تجنبه، ومن الأفضل أن يزاح التفكير به إلى الهامش... وأن السعادة يمكن تحقيقها في هذه الحياة الدنيا، وهي الحياة الوحيدة التي يمكن أن توجد... أما الخلود فهو أكذوبة كهنوتية"⁽⁹⁾.

أسس 'هيغل' في فلسفته لتصور خاص إذ لم يعتقد بوجود الخلود، على أساس انتفاء وجود عالم مستقبلي، وقد تأثر شخصيا بلوغة الموت فقال: "ليست حياة الروح هي تلك التي تنأى بنفسها عن الموت، وتتجنب الدمار،

وإنما هي الحياة التي تتحمل الموت وتتقبله في غير جزع، وهي لا تظفر بحقيقتها إلا حينما تجد ذاتها في يأس مطلق⁽¹⁰⁾، فالحياة المثلى حسبه هي التي تتعايش مع فكرة الموت وتتقبله، وتنضج أكثر وترقى لما تتعرض لصددمات قوية تجعلها قادرة على إدراك سبب وجودها وموقعها من هذه الحياة.

كما احتلت تيمة الموت مكانا جوهريا في صلب توجهات الرومنسيين؛ بحيث توالت أفكارهم القاضية بضيق العيش في هذه الدنيا ورغبتهم الجامحة في التحرر منها انطلاقا من تفاقم الأوضاع المزرية، لذلك كان الموت أحد أشكال ذلك التحرر، وفي خضم الحديث عن تصور الرومنسيين للموت وطريقة تعاملهم معه يقول 'غنيمي هلال' "ولم يكن طلب الموت ضعفا يسوقه الخوف من خوض غمار الحياة، بل كان فيضا من الحيوية التي تدفع بأصحابها إلى الانطلاق في عالم مثالي، لا يلبثون معه أن يكرهوا ما حولهم من عالم الناس، ويضيقون به. فيرون أن الحياة كما يفهمها غيرهم لا تساوي شيئا، فينزعون إلى طلب الراحة من جهاد مئس. ولكنه جهاد في سبيل آمال فسيحة الرحاب. تدفع بذوي العواطف إلى بذل الجهد وإلى الاستجابة لأنبل الدوافع. وهذا ما يفرق بين تمني الموت على لسان العاجزين القاعدين، وبين التطلع إلى الخلود في خواطر المجاهدين من الرومانتيكيين"⁽¹¹⁾.

وقد كان لهذا الشعور العارم بالحاجة إلى ترك هذه الحياة والمترجم في الأدب أسباب مختلفة، من بينها استعظام الأدباء الرومنسيين لمواهبهم وكفاءتهم العالية؛ بحيث لا يقوى العالم على احتوائها أو ترجمتها على أرض الواقع، لذلك كان أحسن حل حسبهم يتمثل في الهروب من هذه الحياة وما فيها ما دامت تشعرهم بالغرابة والوحدة إلى ذلك الحد، مما يدل على تباين وجهات النظر حول الموت في الحقل الفلسفي، بحكم طريقة تعامل الفلاسفة مع الموت من جهة ورصده على أرض الواقع من جهة أخرى.

3 تمظهرات خطاب الموت في الرواية الجزائرية:

زحرت الرواية الجزائرية بعوالم موضوعاتية متنوعة غذتها التجارب المتلاحقة للروائيين الجزائريين، وقد كان لتنوع التجارب وتلاحق الأحداث الأثر الأكبر في ابتداء أعمال روائية تنبني على مرجعيات ثقافية متنوعة المشارب، وكان للأزمات التي مرت بها الجزائر المحرك الرئيسي في بعث تلك الإنتاجات الأدبية على اختلاف أجناسها، وبما أن للرواية الليونة والقدرة الفعالة في احتواء مجمل أشكال المعاني بطرائق مختلفة لجأ الكتاب إليها لبلورة جملة تصوراتهم وعوالمهم التخيلية، فما كان لهم إلا أن يعبروا عن مآسي وآلام الجزائر والجزائريين في أحلك فترات تلك البلاد وأكثرها مأساوية بالموازاة مع التحديات الهائلة الواقفة في وجه التخلص من شتى مظاهر الظلم والأسى والباعثة على اليأس ومغادرة الحياة وحتى التفكير فيها.

1.3 خطاب الموت خلال أدب المحنة:

تنوعت المؤلفات الأدبية الروائية التي خلدت فترة العشرية السوداء، الحرب الدموية التي تركت آثارا عميقة في نفس كل جزائري، إذ استفحل الموت أرجاء الجزائر ولم يستن أحدا من بث رعبه وسمومه عميقا في نفوس الضعفاء

خاصة، وكان لوقعه الصادم والكبير انعكاس لهوية الأدب في تلك المرحلة، وهذا التأثير انعكس في الأدب فأخرج روايات متشربة بالطابع السوداوي الملتف بأحداث تلك الفترة الزمنية.

ويعد 'واسيني الأعرج' من بين أولئك الكتاب الذين عاجلوا تلکم الأوضاع المأساوية في خضم تجاذبات متأزمة أفرزتها الأوضاع الاجتماعية والسياسية في البلاد مع نهاية الثمانينات وبداية التسعينيات، كما تعد روايته 'حارسه الظلال' شاهدة على رؤية الكاتب لتلك المحنة ليس من الجانب التخيلي فقط وإنما من الجانب الواقعي على حد السواء، بحکم أنّ الكاتب رصد أشكال الموت والفاء والاندثار غير المبرر حسب، ومما ورد في متنه الروائي: "اغتيلت ذبحاً، السيدة عائشة جليد. أمام بناقها الثلاثة. في ليلة الأربعاء إلى الخميس اقتحمت مجموعة مسلحة بيت عائشة البالغة من العمر 37 سنة، أم لثلاث بنات وتعيش مفصولة عن زوجها. كانت إطاراً بالولاية ... سمعت دقا على الباب مصحوباً بندااء: افتحي، الشرطة.. الشرطة؟ فتحت. هجم عليها شخصان ملثمان طلبوا منها تعاوناً وسيلاً من المعلومات تخص عملها. رفضت. فهددوها بقتل بشع ومؤلم"⁽¹²⁾.

رصد 'واسيني الأعرج' وقائع الموت الحقيقي الاضطراري الذي تعرض له عدد كبير من الجزائريين في فترة العشرية السوداء، والاضطرابات السياسية التي حالت دون انتقال السلطة بطريقة ديمقراطية، ليحدث ما يشبه الحرب الأهلية الدموية، التي خلفت مجازر عديدة، مست أكثر شيء الطبقة المثقفة في البلاد والإطارات الممثلة لكيونونة الدولة، وقد استعرض الكاتب تفاصيل القتل البشع وبدم بارد، حتى أن التقتيل آنذاك كان هناك ما يبرره بطريقة مثيرة للسخرية، لذلك بنى الكاتب روايته بشكل عام على ثنائية الموت والحياة في ظل واقع مأساوي لا يعبأ بالمنطق أو بالحوار، كما أشار للموت البارد والمؤذي ضمن عجلة الحياة المهترئة والموقوتة بوصفه حتمية مقدره، فلم يعد للناس الإيمان بوجود غد يتطلعون إليه، أو حتى مستقبل يرجونه، فالموت لم يقتصر على كونه حقيقة تقضي بخروج الروح من الجسد فحسب، بل تعلق أيضا برمزية الحياة المبهمة والهشة في ظل دوامة مؤلمة لم يسلم أحد منها، وقد شكل الغموض الذي يلف هذه الحقبة صورة غير مكتملة العناصر، كل ما يظهر فيها سيول دماء لأناس أبرياء، فالكاتب درس هذه الفترة من منظور تأزم أوضاع الناس وغياب الأمن والاستقرار واستفحال الموت والقمع على أصعدة مختلفة في تلك البلاد.

في حين عالج 'الطاهر وطار' في روايته "الشمعة والدهاليز" مأساة التسعينيات من منظور مختلف، إذ توغل في معرفة حيثياتها وأسباب حدوثها، وقد جعل من بطل روايته 'الشاعر' شخصية فاعلة ومؤثرة توغلت عميقاً في أحداث تغيير نظام الحكم في البلاد واستبداله بنظام حكم إسلامي، إذ اكتشفت الشخصية الرئيسية لاحقاً أن النظام ومن خلال اعتماد الحزب الواحد ساعد التنظيمات الإسلامية في نشر وضع مزر قوض سلامة الناس وسلبهم حياتهم بحجة إقامة خلافة إسلامية قائمة على مبادئ الإسلام الحية، وقد جاءت نهاية البطل تكريسا لمفهوم الألم والضيق، إذ راح ضحية لتحقيق مآرب أناس أعمتهم مصالحهم الشخصية وأنانيتهم إلى درجة إلغاء

الآخر ووجوده من هذه الحياة "وها هو مسجى، جثة هامدة، وسط جموع وحشود، تملأ المقبرة، وتحتف، لا إله إلا الله، محمد رسول الله عليها نحيا وعليها نموت، وعليها نلقى الله" (13).

واختار 'بشير مفتي' في روايته "أشباح المدينة المقتولة" (14) أن يصور للقارئ شخصيات مختلفة الخلفية والهويات، لكنها تشترك في رغبتها العارمة في الحياة لكنها تفاجئ بواقع قاس يسلبها أعز ما تملك، ففي روايته تلك رسم الكاتب خمس لوحات تراجمية متعلقة بفترة العشرينيات السوداء، وقد تنوعت في اتجاهاتها بين سياسية واجتماعية وتاريخية. يتضح للمتلقي من خلال عنوان الرواية أنّ الكاتب يسرد قصة مدينة يسكنها مجموعة من الناس فقدوا آمالهم ومستقبلهم المشرق في عيش حياة كريمة، ظلت أرواحهم تطوف تلك المدينة الموصوفة بالمقتولة، فالحيز المطروق هنا-العنوان- يعكس للقارئ أنه بصدد الإبحار مع الشخصيات الروائية التي تعيش في مدينة استفحل فيها الدمار والموت مع تعرضها للخيانة والغدر.

كما عقد الكاتب في روايته مقارنة بين ماضي الجزائر وأحوالها المنتشية بقيم الثورة والاعتزاز الكبير الذي ملأ قلب كل جزائري بعد نيل الاستقلال، مع حاضرها المتأزم الذي احتلقت فيه الأنانية بالوحشية "إن روايات 'بشير مفتي' تشخيص أدبي لموضوع الموت، وتناول ميتافيزيقي لإشكالية الموت، عبر سرد ممزق، عنيف، سوداوي. وشخص تعاني قلقا وجوديا. واللائمة والتشظي بين الروح والجسد. فكانت رواياته بحق صورة صادقة عن عنف الزاهن التسعيني، التي سادته العدم، الموت، العبث، الخوف، اللامعنى" (15).

فتلك الروايات تأرجحت بين تصوير واقع مرعب ومؤذي على مستويات مختلفة، وبين تجسيد تصورات الإنسان وتطلعاته في بناء مستقبل أفضل والتخلص من همومه المختلفة، فتلك الروايات التي تتناول محنة الجزائر ومأساة الإنسان يهيمن عليها فعل الموت منذ البداية حيث يوقفنا السارد على رائحة الدم والموت من خلال عرض حالة المدينة أو الناس المهزومين، ودواعي تدهور الأوضاع، وهنا يبدو الحكيم حدثا مشحونا بآثار تلك الهزائم في الواقع، وفي النفوس بدرجة متفاوتة (16).

2.3 أشكال خطاب الموت في الكتابة الروائية الجزائرية:

يتخذ خطاب الموت أشكالا متعددة بين الواقعي (الاضطراري/ الاختياري) والرمزي، بحيث تتنوع دلالاته من خلال السياقات الروائية المستقر فيها، ونستشهد في هذا المقام ببعض من النماذج الإبداعية للتدليل على المعاني المصطبغة بالموت ورائحته في كتابات الروائيين الجزائريين المعاصرين، إذ أثر الطابع التشاؤمي كثيرا على مخلفات هؤلاء، فلا الإنسان مكتف بحياته في واقع لا يبشر بتحسين أوضاعه ولا المستقبل كذلك، إضافة إلى مختلف الأزمان التي تحببت فيها الجزائر لوقت من الزمن.

والموت في عرف التفكير الإنساني يتعلق بصفة مباشرة بالتصور الوجودي له، فالإنسان الذي يعيش حياته يعرف أنه يستلزم وفي يوم ما أن يخسرها ويخسر وقته، وهو يتمتع بما لصالح الموت المسطر ليهدم لذاته ويقضي على يومياته وطموحه ومستقبله أو ما يتبقى منه، فالإنسان مفطور في هذه الدنيا على معرفة حتمية النهاية، لهذا يقع

كثير من الناس في فوضى عارمة من التفكير حول بعث الحياة في اليوم الآخر وتحقق فكرة الخلود في الجنة أو النار وكيف يمكن للإنسان أن يستمر وجوده ولا يتلاشى حسبهم، فالبداية مرتبطة دائما بالنهاية في فكرنا الديني. وعند الحديث عن الموت الاضطراري الذي شكل تيمة حيوية في موضوعات أدب المحنة، بفعل قيام حرب أهلية غير معلنة آنذاك، نرصد الموت الاختياري الذي تسلل في ثنايا الشخصوس الفواعل وكان بمثابة العقدة والحل في آن واحد فيها، فهذا هو 'واسيني الأعرج' يصنع لبطلته روايته 'لوليتا' تلك النهاية الدراماتيكية ويسرد: "وما كادت ترفع رأسها من جديد نحوه، وتعيد الحركة نفسها بقبلة أخرى، حتى لمع برق معمي البصر. انفجرت بكلها. فتطاير جسدها المش في كل اتجاه مشكلا حرائق صغيرة ظلت مشتعلة في مكانها على كتل الثلج. تبعثها لحظة بياض تجمد فيها كل شيء. النظر. حركة الناس. الصور. الأضواء. السيارات. الناس. توقف أيضا سقوط الثلوج للحظة. انسحب وجه لوليتا نهائيا من المشهد..."⁽¹⁷⁾، اختارت البطلية في النهاية أن تنهي حياتها على طريقة المفجرين الانتحاريين الإرهائيين، إذ ماتت بعد أن فجرت نفسها بحزام ناسف وسط مدينة باريس.

فقد سرد الكاتب في أطوار روايته تلك موضوعات مختلفة تعلقت تقريبا بحياة البطلية مع البطل، والحياة النفسية المضطربة التي تعيشها، وبالرغم مما عانتها في حياتها من ظروف صعبة إلا أنها نجحت وأصبحت عارضة أزياء مشهورة في أوروبا، والتقت بالبطل 'يونس مارينا' الذي منحها بعضا من الراحة والاطمئنان، إلا أن ذلك لم يستمر طويلا، فهي عاشت تناقضات كثيرة جعلتها تنسل من الحياة وتغرب منها وحتى تتورط في جرائم متنوعة، لم تنكشف إلا مع نهاية الرواية، فهي اختارت الموت وتنفيذه بتلك الطريقة بعدما انكشفت أسرارها.

ولم تكن نهاية البطل 'يونس مارينا' مختلفة عن 'لوليتا' إذا استثنينا اضطراره للموت اثرى وقوعه في شبكة الإرهائيين الذين طالما تربصوا به بسبب كتاباته التشكيكية بشأن الإسلام وما ورد عن الصحابة والعلماء المسلمين، إذ ورد في الرواية نهاية 'مارينا' بالشكل الآتي: "افتح الباب يا حميد السويرتي. علتة رجفة أخيرة وحمى باردة. لأول مرة يقتنع بأن للموت رائحة. رائحة ليست ككل الروائح"⁽¹⁸⁾، فالروائي وبعد خطه لصفحات عديدة قرر أن نهاية كل المتاهات الوجودية المتبعثرة في الرواية والحيلة على حياة ممزقة تمتع بها أبطال الرواية كانت الاندثار والفناء وترك هذا العالم الذي عاشه البطلان بكل طوله وعرضه بالرغم من كل شيء، ظل الموت ملازما للبطل، بينما مثلت البطلية شعلة الحياة بالنسبة ل'مارينا' الذي سرعان ما انطفأ بعد انطفائها مباشرة، فتهديد الموت المصوب نحو رأس 'مارينا' مثل العقدة في الرواية كلها وبمجرد تحققه انفضت الرواية بما فيها.

ومن أشكال كتابة الموت الأخرى نرصد الموت الافتراضي الذي مس تقريبا كل الأعمال الأدبية، بحكم شموليته وعدم اقتصره على خصوصية محددة، فمثلا تجسدت في رواية 'بشير مفتي' "شاهد العتمة" إشارة إلى مثل هذا النوع من الموت، فقد ارتبط المطر عنده بالموت حين قال: "كان الشتاء مطرا أمطر من كل الشتات التي عهدناها من قبل، وخبيل إلي أنه سيدوم إلى وقت أطول، وأن الأرض ستغتسل نهائيا... إلى مدى لانهائي... كأنه الشتاء الأخير... شتاء لكل الأزمنة"⁽¹⁹⁾، تغيرت دلالة المطر ورمزيته المعهودة مع تصور الكاتب له، إذ انقلبت

دلالتها رأسا على عقب، فالمطر الآن نذير الفناء والنهاية، هو الآن يعبر عن البرودة والقسوة وعن الحرمان والكآبة أكثر من منحه تلك الحياة الجديدة، فقد تنصل من روحته المعهودة وأصبح دليل الموت والاستسلام، وكأنه آخر مطر ينسكب على الأرض بنوع من السوداوية المطلقة، والنهاية المطلقة لكل شيء عرفه الإنسان في هذه الدنيا. يمكن أيضا استنتاج تشكل الموت الافتراضي من خلال عنوان رواية "أشباح المدينة المقتولة" إذ نسب الكاتب هنا مجازا الموت للمكان للمدينة المحيلة على الجزائر، وأن من يعيشها ليسوا سوى موتى وأشباح يسكنونها بعد أن فقدوا هويتهم وانتماءهم إليها، ولم يُظهروا لها الحماية الكافية التي كانت لتمنع سنوات الموت والتقتيل، كما أنهم لم يحافظوا على أمانة الشهداء النوفمبرين. فتعلق الموت بالمكان أو بالأحرى الفضاء الذي يجمع في جوفه باقي العناصر السردية الأخرى، حملته الكاتب دلالات معنوية زاخرة بأفكار حيوية تعكس الطابع المأساوي للواقع حقيقة، وللعالم المتخيل افتراضيا.

4. خاتمة:

تعلقت الرواية الجزائرية المعاصرة بتيمات متعددة الجذور والأصول أفرزها في أكثر الأحيان الواقع وما فيه من تقلبات، ولعل الحركية الهائلة التي شهدتها الجزائر في فترات زمنية متلاحقة سببت نوعا من الإلهام المستمر، استثمره الأدباء لاحقا في نصوصهم الروائية، وكان الموت أكثر تلك الموضوعات حضورا لكونه يطغى على الحياة ويفرض وجوده عليها، لأنه أضحى قدرا محتوما على الناس في فترة العشرية الحمراء. واستنادا على ما أوردناه في مداخلتنا المقتضبة استخلصنا مجموعة من النتائج نحصرها فيما يأتي:

- أنزل الله تعالى القرآن الكريم على عباده وجعله هدى يعلمهم ويبين لهم من خلاله طريقة الفلاح والصلاح، وقد خصص الخطاب القرآني فضاء للتفصيل في موضوع الموت وما بعده.
- عالجت الفلسفة موضوع الموت من توجهات مختلفة بعضها سار على ما جاءت به الأديان السماوية، والبعض الآخر ثار على مفهوم الخلود، ودعا إلى الإقبال على الحياة بما فيها وتجاهل الموت.
- شكلت العشرية السوداء فترة حاسمة في حياة الأدباء، فقد ألهمتهم لبناء متون سردية طافحة بمشاعر صادقة، ووصف واقع أقل ما يقال عنه أنه مأساوي.
- تتنوع أشكال الموت بين واقعي؛ فالشخصية يقع عليها الموت أو تختاره بملء إرادتها، وبين افتراضي كموت المكان والأحلام والأسطورة والعناصر الطبيعية وغيرها، ولكل شكل من الموت دلالات جوهرية تبحث في حقيقته وجدواه ضمن سياقات مختلفة.

وتبقى الأزمة والمأساة والتجربة دافعا ومحفزا صادقا لابتداع أكثر النصوص تأثيرا على أرض الواقع، وقد تنبثق من الموت أجمل حياة حتى وإن اقتصر في ميلاد رواية أدبية.

5- الهوامش:

1. - ليلي حمدان، حقيقة الموت. دار يقظة (دمشق). دت. ص 11.

- 2- محمد عبد الرحيم الزيني، حقيقة الموت بين الفلسفة والدين. دار اليقين (مصر). ص 38.
- 3- محمد يشوتي، خطاب الموت. مجلة علامات. (المغرب) ع 15. ص 43.
- 4- محمد عبد الرحيم الزيني، حقيقة الموت بين الفلسفة والدين. مرجع سابق. ص 99.
- 5- مجدي محمد إبراهيم، مشكلة الموت عند صوفية الإسلام. مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة). ط 1. 2004. ص 317.
- 6- محمد عبد الرحيم الزيني، حقيقة الموت بين الفلسفة والدين. ص 72.
- 7- نفسه. ص 73.
- 8- جاك شورون، الموت في الفكر الغربي. تر كامل يوسف حسين. سلسلة دار المعرفة (الكويت). 1984. ص 129-130.
- 9- نفسه. ص 157.
- 10- نفسه. ص 178.
- 11- محمد غنيمي هلال، الرومانتيكية. نفضة مصر (مصر). دت. ص 51-52.
- 12- واسيني الأعرج، حارسه الظلال. دار ورد (سورية). ط 2. 2006. ص 33-34.
- 13- الطاهر وطار، الشمعة والدهاليز. منشورات التبيين الجاحظية (الجزائر). 1995. ص 206.
- 14- بشير مفتي، أشباح المدينة المقتولة. منشورات الاختلاف (الجزائر). 2012.
- 15- سامية غيثر، تجليات الموت الرمزي في روايات بشير مفتي. مجلة دراسات وأبحاث. ع 27. جوان 2017. ص 171.
- 16- آمنة بلعلي، المتخيل في الرواية الجزائرية من المتماثل إلى المختلف. دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع (الجزائر). 2003. ص 79.
- 17- واسيني الأعرج، أصابع لوليتا. دار الصدى (دبي). ط 1. 2012. ص 450.
- 18- نفسه. ص 463.
- 19- بشير مفتي، شاهد العتمة. منشورات البرزخ (الجزائر). ط 1. 2002. ص 156.

6. قائمة المراجع:

1. آمنة بلعلي، المتخيل في الرواية الجزائرية من المتماثل إلى المختلف. دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع (الجزائر). 2003.
2. بشير مفتي، أشباح المدينة المقتولة. منشورات الاختلاف (الجزائر). 2012.
3. بشير مفتي، شاهد العتمة. منشورات البرزخ (الجزائر). ط 1. 2002.
4. جاك شورون، الموت في الفكر الغربي. تر كامل يوسف حسين. سلسلة دار المعرفة (الكويت). 1984.
5. سامية غيثر، تجليات الموت الرمزي في روايات بشير مفتي. مجلة دراسات وأبحاث. ع 27. جوان 2017.
6. الطاهر وطار، الشمعة والدهاليز. منشورات التبيين الجاحظية (الجزائر). 1995.
7. ليلي حمدان، حقيقة الموت. دار يقظة (دمشق). دت.
8. مجدي محمد إبراهيم، مشكلة الموت عند صوفية الإسلام. مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة). ط 1. 2004.
9. محمد عبد الرحيم الزيني، حقيقة الموت بين الفلسفة والدين. دار اليقين (مصر). دت.
10. محمد غنيمي هلال، الرومانتيكية. نفضة مصر (مصر). دت.
11. محمد يشوتي، خطاب الموت. مجلة علامات. (المغرب). ع 15.
12. واسيني الأعرج، أصابع لوليتا. دار الصدى (دبي). ط 1. 2012.
13. واسيني الأعرج، حارسه الظلال. دار ورد (سورية). ط 2. 2006.